القضايا التي يعرضها عن الفلسطيني العام والفلسطيني لقضية ما جدي الحياة ليس من جانبه فقط بل من جانب العشرات والمئات من الصهيونيين الاخرين ايضا . ان شرطه للنجاح في مهمة الاستيلاء على بلد وبناء دولة فيه بسيط جدا : ليس العمل عمل هواة جزئيا وانما هو تفرغ تام للعمل الدؤوب الذي لا يعرف الكلل ، واخضاع تام للعديد من الوسائل في سبيل هدف واحد بعيدا عن المسائل الاخلاقية . وأفضل عنوان كان يجب ان يطلق على هذا الكتاب هو : « أهمية الا تكون انسانا لطيفا ومهذبا » .

وهناك عدة اسباب تحول دون نجاح الكتاب في ان يكون عملا ضخما : في المقام الاول ، فان اسلوبه مربك ، فهو « كتاريخ شخصي » عبارة عن رواية شخصية ولكنها مكتوبة في صورة غير شخصية . وكونه كذلك لا يحقق لنفسه النجاح لا كرواية تاريخية ولا كسيرة ذاتية . ومما يثير الضجر والملل ان بن غوريون يشير الى نفسه باسم « رئيس الوزراء » . وحسب ما اذكر ليس هناك اي زعيم كتب سيرته الذاتية مستخدما ضمير الغائب لان ذلك يثير السخرية . وسبب آخر من اسباب فشل الكتاب انه طويل جدا ، فقد ضمنه بن غوريون نصوص الخطابات المهمة وغير المهمة التي القاها وكذلك كل مذكرة كتبها . ولان بن غوريون يجعل ، في شكل مخطط ، من دولة اسرائيل او بالاحرى من حكومتها موضوعا لكتابه بقدر ما يجعلها موضوعا لسيرة حياته فاننا نجد عشرات الصفحات المملة التي تبدو وكأنها صفحات من الكتاب السنوي للحكومة الاسرائيلية : فنحن لسنا بحاجة الى شخص مثل بن غوريون ليعطينا ارقام الهجرة للعام ١٩٥٨ او ليخبرنا عن عدد البيوت الجديدة التي بنيت في العام ١٩٥٦ . كما انه لم يكن منطقيا ان بن غوريون (الذي يصرح باحتقاره لتعدد الاحزاب السياسية في اسرائيل) يضيع صفحات كثيرة في وصف مناورات تلك الاحزاب التي لا تنتهي وبتفصيل دقيق .

الا أن هناك موضوعا واحدا يعالجه الكتاب ويبدو فيه شخصيا جدا ، ذلك ما يسمى « قضية لافون » التي وقف فيها بن غوريون الى جانب المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ضد لافون وزير الدفاع آنذاك وليفي اشكول . وكتب بن غوريون مطولا عن هذه الحادثة ولكن بطريقة تكشف فقط ان بن غوريون

البريطاني المتعجرف استطاع ان يتغلب على بن غوريون النبي الصغير ورجل الدولة الكبير .

ولا يرجع فشل الكتاب الى انه يحتوي على حقائق كثيرة جدا وانما الى كونه لا يضم الكفاية منها والى كونه يغفل حقائق كثيرة أخرى . ان الموضوع الذي يعالجه بن غوريون بأعظم تفصيل هو احداث ١٩٤٧ و١٩٤٨ . ولكن ما هي القيمة التاريخية لرواية تقدم وصفا مفصلا للهجوم العربي على القافلة اليهودية المتجهة الى جبل سكوبس ولا تقول كلمة واحدة عن المجزرة التي ارتكبها الصهيونيون ضد سكان قرية دير ياسين العربية ؟ وما هي القيمة التاريخية لرواية يسردها احد المحركين الرئيسيين للعدوان على السويس في العام ١٩٥٦ عن ذلك العدوان دون ان تقول كلمة واحدة عن الترتيبات السرية التي قام بها بن غوريون في التواطؤ البريطاني — الفرنسي آنذاك ؟ وليست رواية بن غوريون حول هذا الموضوع غير تامة فحسب بل انها ساذجة الى حد اثارة الضحك . ففي حين يخصص ٥٣ صفحة للحديث عن فضيحة لافون يترك ٣٥ صفحة فقط للحديث عن مسألة السويس . ولا توجد ايضا كلمة واحدة عن محاولات بن غوريون المتكررة والفاشلة لدخول منظمة معاهدة شمال الاطلسي أو لتحقيق تحالفات ثنائية مع بريطانيا ثم مع فرنسه وبعد ذلك مع الولايات المتحدة . ولا يقول كلمة واحدة كذلك عن محاولته الناجحة في احكام الصلات مع ايران والحبشة والتي اصبحت عاملا من أعظم العوامل أهمية في سياسة اسرائيل شرق الاوسطية .

وبما ان بن غوريون غير صادق الى حد كبير من حيث طبعه للحقيقة فانه لا يثير استغرابنا أن يكون غير صادق الى الحد ذاته من حيث طرحه أمورا بسيطة خاطئة . وهكذا فانه يكرر الكذبة الفاضحة بأن الفلسطينيين تركوا بيوتهم في ١٩٤٧ — ١٩٤٨ وفقا للاوامر التي صدرت اليهم من الهيئة العربية العليا . وهو يكرر حتى الكذبة الصارخة بأن اسرائيل انما قامت بهجوم مضاد فقط للدفاع عن نفسها في الخامس من حزيران ١٩٦٧ لان القاذفات والدبابات المصرية شوهدت وهي تتقدم لمهاجمة اسرائيل . وبسبب هذه الاخطاء التاريخية في الاقرار والالغاء يكاد كتاب بن غوريون يصبح مجرد واجهة دعائية مؤثرة جدا . ويجب ان يعلم بن غوريون قبل أي انسان آخر ان هذه هي حقيقة كتابه .